تراث قديم وطراز معماري بتكنيك خاص لدى الفنان خالد الجادر

د.ماضي حسـن نعمـة

ألفنان – خالد الجادر ألذي أكمل كلية الحقوق ألتي تسمى القانون والسياسة حاليا، أكملها تلبية لطموح ورغبة الوالدين, لكي يكون محاميا، ولكن تبقى الصلة مرتبطة مع غليان وفوران الذات والفكر والإحساس لما يمتلكه من إتجاه الموهبة ألتي تولد مع الإنسان، وإذا كانت هنالك أختصاصات أخرى سواء كانت أدبية أو علمية، فإن دراستها مفتوحة أمام الجميع، عندما يكون هنالك إلتزام ومثابرة وطموح.. تستطيع حتى فئة الفنانين تكملتها ومنها الطب والهندسة, والأمثلة كثيرة من هؤلاء كالفنان علاء بشير ألذي أختص في الطب والطبيب الفنان خالد القصاب, وغيرهم، ولكن لايمكن لعامة الناس أمتهان أختصاصات الفنون ألتي تحتاج إلى الموهبة زائد الرغبة والمشاعر الحساسة، لذلك فإن ألفنان عملة نادرة تستوجب الأهتمام بها. .كما يحصل لدى البلدان ألتي تقدر ألفن والفنانين. والفنان هو أرقى من كل الإختصاصات والمناصب العالية من رئيس جمهورية إلى أدنى مستوى من السياسيين ألذين وصلوا ليس عن طريق الإبداع ألفني أو الإختراعات العلمية، وإنما عن طريق الأنظمام إلى حشود توصلهم التقلبات والمطافات المتقلبة إلى القمم أحيانا وتقذف ببعضهم نحو المزابل أحياناً أخرى، والأمر يتوقف على مدى خدمتهم وإخلاصهم إلى القوى الخارجية ألتي أسندتهم ونصبتهم، وهذا الأمر لاينطبق على مرحلة محددة وإنما عبر العصور. .

لذلك نجد أسماء العلماء والأدباء والفنانين الحقيقيين مخلدة في التدوين والذاكرة، وأذا تم محاربة البعض منهم عبر العصور مهم جابر أبن حيان, أعدام الفيلسوف سقراط والكثير الكثير فهو أجراء من طبقات حكام جهلة, بينما نجد آلاف ومئات الأسماء من الوزراء والمناصب لم يسجلوا في الذاكرة، سوى الشخصيات العقائدية والشخصيات المدمرة للشعوب يتم ذكرهم بوجع وتذمر، بينما لم نجد أديب أو مفكر أو معماري أو تشكيلي أو صاحب أنغام تحي النفوس الراقدة من أنين الألم. . لم نجد أحد من هؤلاء أبادوا شعوب مثل: هيروشيما،

وناجازاكي، واقعة الطف، الأنفال، حلبجة، وسبايكر وغيرها من أفعال قطع الرؤوس وأسر النساء الأيزديات. ولكن عند تبقى مكانة وأهمية المبدعون مرتبطة بالإصلاء وليس لمن أساؤا إلى الوسط ألفني، وخاصة القرقوزات الساذجة ألتي دخلت على الوسط المسرحي ألذي تحول من كوميدي إلى مسخرة تسيء إلى قيمة المجتمعات ومنها الريفية العراقية الجنوبية تحديداً، والقارئ لايحتاج ذكر أسماء تلك النتاجات وأسماء أفرادها، فالفئة الواعية من التجمع تعي ذلك، ولكن جمهورهم المشابهة لهم يروجون لهم بالترحيب والتشجيع والتصفيق، والأمر ينطبق على نتاجات الفنون الأخرى كالرسم والنحت والخزف وكذلك كثرة الروائيين والشعراء والمؤلفات ألتي تروج للخرافات والمضامين السطحية.

من ذلك نستنتج بأن هذه الفئة الرائدة للفن العراقي المعاصر ومنهم الفنان – الدكتور خالد الجادر – لهم الدور الكبير في تنمية وزرع حيوية وحركة ومكانة التشكيل العراقي بل والعربي كذلك، بعد فترة من الزمن لجمودها المقتصر على الخط والزخرفة والمنمنمات المقترنة بالفن المعماري. والفنان – الجادر- تمت محاربته وعزله وأعتقاله فترة, ولم تسنح له الفرصة في التعيينعندما أكمل الحقوق, وبعد تكملة الدراسة في الخارج فأنه غير مستقر, أو الأستمرار فيه, لذلك هاجر خارج البلد وأستوطن في السعودية ثم أعقبها في المغرب, وبرغم أغترابه, فأنه وجد ترحيبا وتقييما وتشجيعا, حولت عطائه الفني مساهمة في أرشفة تراث هذه البلدان .تتصف أعمال الفنان – خالد الجادر- بإمكانيته على التعبير بتميز خاص عن التقنيات السائدة آنذاك، كونه يملك منطق خاص تتخطى هذه التقنية الفنية وتختزلها إلى أفضل ما يراد للتعبير أن يفصح ويشير له.

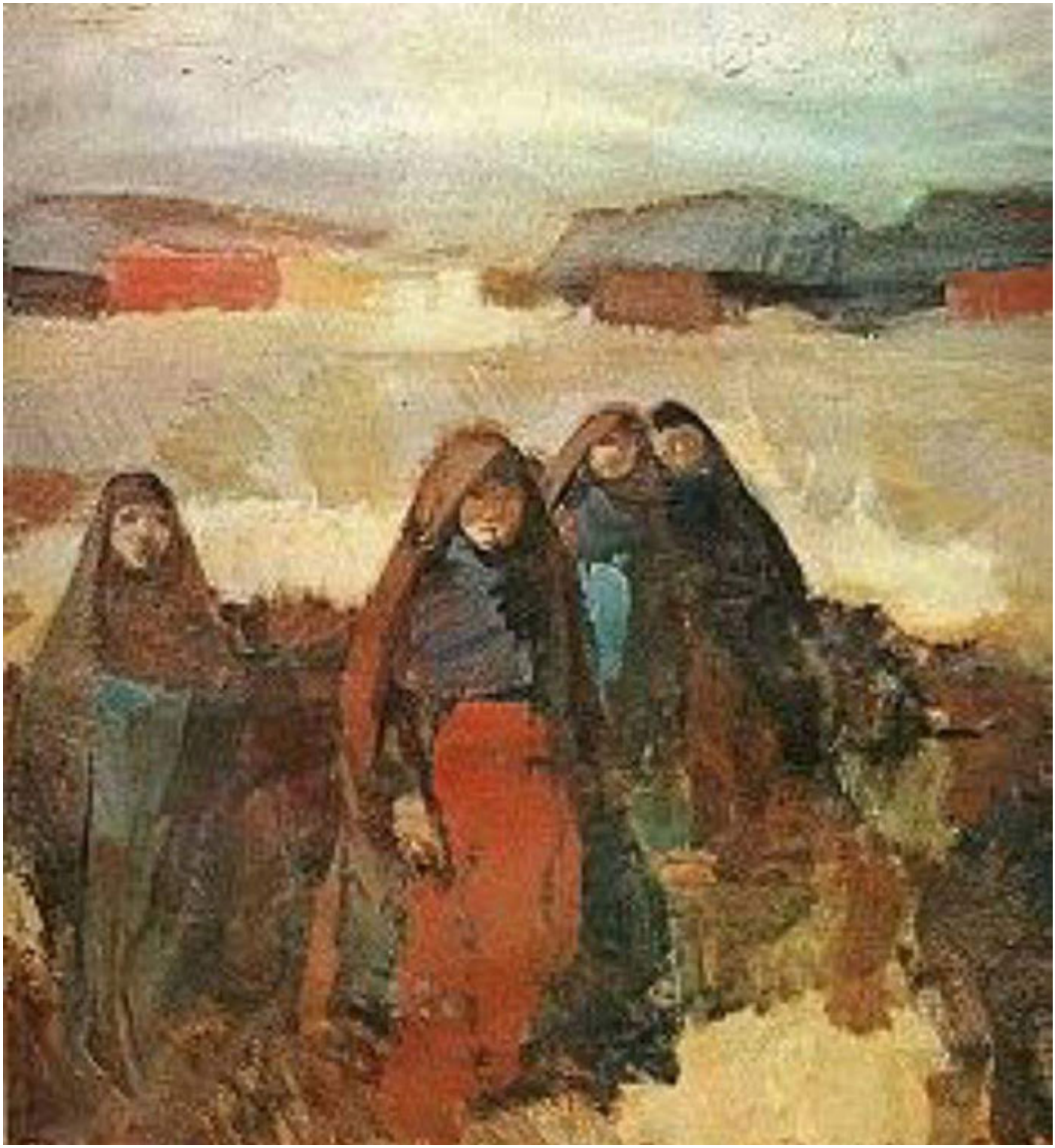

إنه رسام يقتنص كل ما يثير عيناه وشعوره المختزن، إنها موضوعات من القرى في الجنوب والشمال، الصحراء والمياه ، الإنسان أينما وجد ولكن بصورة غير مختلفة ليست محاكاة ولا فوتوغرافية ولا مبهرجة للألوان، حيث ينغمر ويغور في داخل الأشياء ويظهر بواطنها وايحاآتها وألوانها ودلالاتها الفنية، بهذه الطريقة الأبداعية تتحدد رؤياه ومغزاه وتخلق الأسلوب الذي يشخص إنفرادية الفنان. وبشكل عام يميل ألفنان – خالد الجادر- نحو أنطباعاته الشرقية وليس البيئة الغربية، إنه يرسم الأشياء من الباطن ويتداخل معها بشعوره النفسي. ولو رسم حصانا أو طائرا أو فراشة أو نهرا قد تفاعل وتداخل معها نحو هذه الأشياء التي يرسمها فهو لا يرسمها من ظواهرها كما تبدو لعين الإنسان المنتفع بها بل يتحد معها بروحه ليرسمها من الباطن، فينفذ إلى صميم ما يتصدى لتصويره، إنه يدخل في تفاعل مع اللوحة ولا يخرج خاسرا أو يقف محايدا مطلقا وإنما يندمج روحيا مع اللوحة بكل ما تحمله الروح من صفات ويخرج الموضوع المقنى بالأختيار.

وفي أغلب أعماله يركز على الأنسان كونه عنصرا أساسيا في اللوحة ويجعل له رمزا تعويضا في الطبيعة. وتوحي ملامح الإنسان بإيحاءات مختلفة تتراوح بين التفاؤل والعذوبة الحسية والحزن أحيانا. لذلك تبدوا على أعماله ضربات لونية ميالة بألوانها إلى الرمادي والبني,وأستخدام الألوان الصريحة منها والأزرق ولون الفخارهذان اللونان يخففان من غلواء لون البني والرمادي والتي هي في الحقيقة تخفيف لحزن وأسى، ويشير لذلك ألفنان الجادر عن تجربته وموقفه من عصره ومجتمعه فيقول : (... أنني أحد شواهد العصر أراقب ما هو موجود حولي من طبيعة وشواهد كما أني كثير السفر وتستهويني المشاهد الريفية والآثار وقد نقلت الآثار المعروفة بشكل تعبيري وتأملي ..حيث أتأمل الخط واللون والأنشاء التصويري أي أدخل الفكر الى المشهد أيضا ...

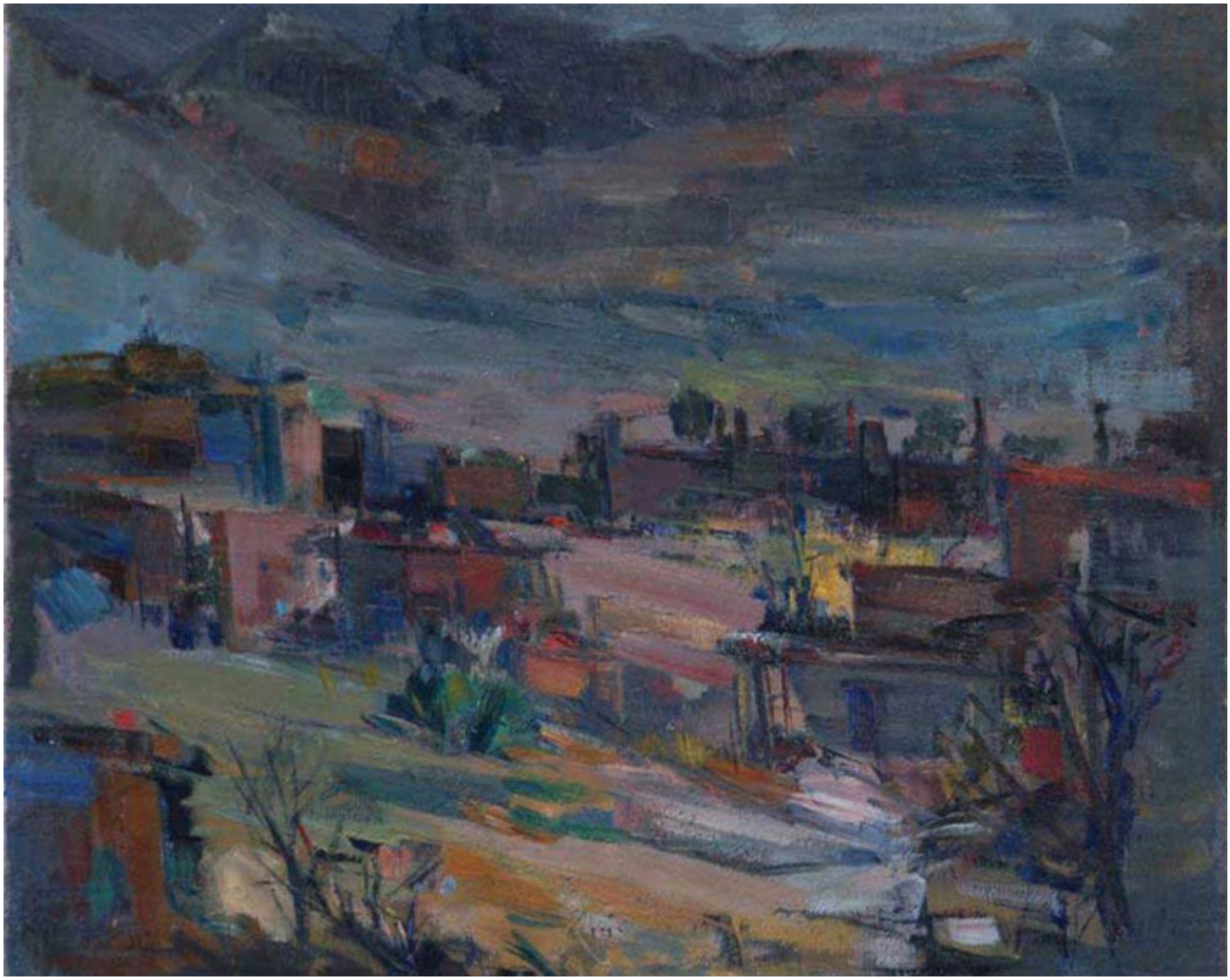

وأن لوحاتي لا تنتمي الى المدرسة الأنطباعية وإنما هي نظرة تعبيرية ...أنها مدرسة خاصة فلي أسلوبي) ويقول كذلك: (يجب أن لا نفكر بأننا ننقل الموضوع، بل يجب أن نفكر بأننا نخلق الشكل ، يجب دائما ملاحظة المجموع داخل الصورة وليس أجراء الموضوع متفرقة ولا التفاصيل). وفي مجال التخطيطات بأدواتها المتنوعة، بالحبر والقلم الرصاص هي نسيج شخصيته الفنية وهي الوسيلة المقربة للتنفيذ والأستخدام، وعماد صدقه للوصول الى أسرع المواضيع التي تتميز بالحدث الدرامي تكون أمام عينيه وداخل فكرة يسجلها بعنفوانها ولحظة وجودها لتصبح لوحة مستقلة بذاتها أوعمود نظري لمشروع لوحة، وكثير من هذه اللوحات تعبر عن المجتمع العراقي رسمت بالألوان الحيادية الأسود والأبيض وأصبحت متفردة في موضوعاتها وذات تكوين يغري بتناغمه الموسيقي ورهافة خطه الخارجي الذي يجهز الحركة لتكون في خدمة الموضوع.

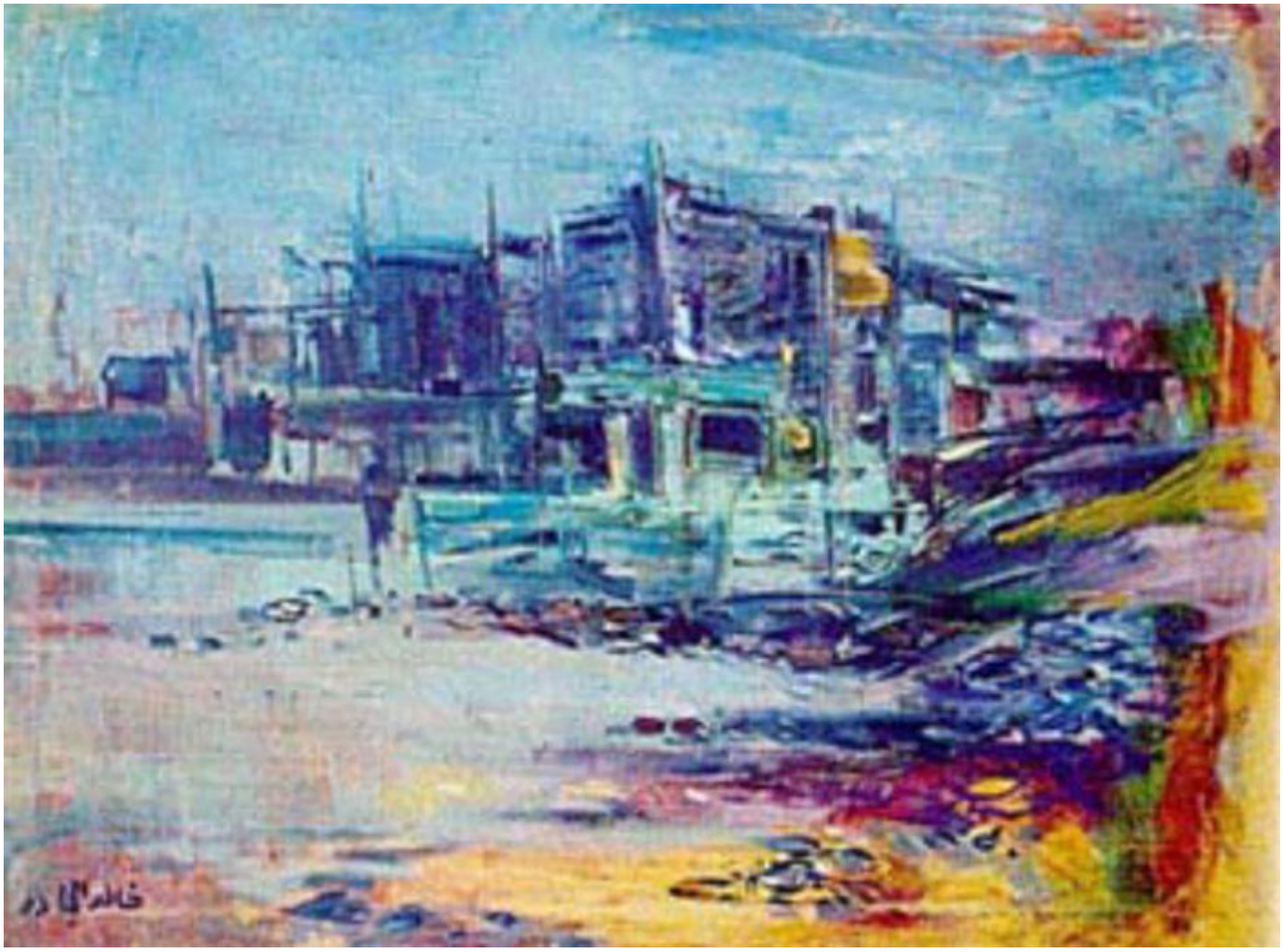

لقد كان ألفنان – خالد الجادر- يجعل من التخطيطات أساسا في فن الرسم الى جانب الرسم بالألوان وأصبح أسلوبا يقترن بأسمه وبهذا أضاف قاعدة في التخطيط إلى الفن العراقي والعربي عموما لقد كانت تدفعه لوأعجه بعدم الأستقرار في مكان محدد لذا نجده يفتش دوما عن بيئة جديدة في المملكة العربية السعودية تتفجر أحساسيته أكثر فأكثر وتغريه الصحراء والأمتدادات والقلاع الأثرية والمواضيع الشعبية والأسواق. أما في مايخص معرضه في الرياض عام 1969، فقد كانت أعماله ترتبط صلة الفن الشعبي بالفن المعاصر بصورة متجانسة ومتقاربة. حيث كان الإهتمام بالفن الشعبي وبلورته وتطويره يساعد على خلق فن معاصر يحمل عادات وتقاليد وتراث المجتمع مما يؤدي الى خلق فن متميز يحمل شخصية المجتمع السعودي تحديداً في معرضه ألذي أقيم هناك. وكانت تجربته الفنية كأستاذ متمرس وصاحب تجربة غزيرة في الإنتاج من حيث وضع السطوح اللونية وواقعيته، تستند على تجاربه الأولى منذ أربعينيات هذا القرن (العشرين) فهو إلى جانب تمسكه ببمهارته التقنية لـ(فنان أكاديمي) يحتفظ بالقيم اللونية، وهو يمثل هذا الإحتفاظ يظل بما يتناسب مع تربة حضارته حضارة الرافدين القديمة والإسلامية حيث الألوان نصف البراقة من فضل الشمس البراقة وتبدو لديه مواضيع القلاع تشمخ في الفضاء والبيوت القديمة والقرى وبائعات التوابل والبدويات في الخيام. لقد كان هذا المعرض تفريغ لأنفعالات وهواجس ألفنان – الجادر- بما يتناسب مع مع مصادر الإقتناء والتأثر بها من حيث البيئة والمناخ لأنه دائم البحث عن بيئة جديدة وعالم جديد يتطابق مع فكره وهدفه. والبيئة السعودية كان يتوق للوصول إليها،

لذا نراه يشاهد الصحراء بتأمل والأسواق الشعبية والمحلات التراثية وأستطاع أن يرسمها ويتعاطف معها، حيث أشار: وكنا نرسم نحن نرسم هذه الأجواء في لوحاتنا بعيدا عنه وخاصة (صحراء النفوذ الكبرى) وأنتشار

خيام الأعراب فيها وكان حصيلة ذلك معرض قدمته في السنة الثانية في مدينة. أما أستقراره في المغرب، إختلط وتفاعل هناك مع مثقفيها ومبدعيها التشكيليين والمسرحيين ، أمثال الطيب الصديق وأحمد الطيب و عبد القادر البدوي وعبد الكريم برشيد، وفولكلورها الموسيقى والغنائي الجماعي المتحرك في المهرجانات والإحتفالات الكبرى التي تعبر تعبيرا صادقا عن روح الجماعة، في الحكاية وفي عاداتها وتقاليدها العربية وبناياتها وطرزها القديمة التي تحكي أشراقة الغرب في هذه البلاد، لقد كان هذا الأختلاط والإنسجام والتفاعل مع المحرك الثقافي المغربي قد أيقظ كل الكوامن الإبداعية في مخيلة وأحاسيس الفنان – خالد الجادر- ونهل من ينابيع هذا التراث الحي وبذلك أنتج مزيدا من الأعمال الزيتية والتخطيطات تركت أثرا ثريا مميزا مضافا إلى التراث المغربي،

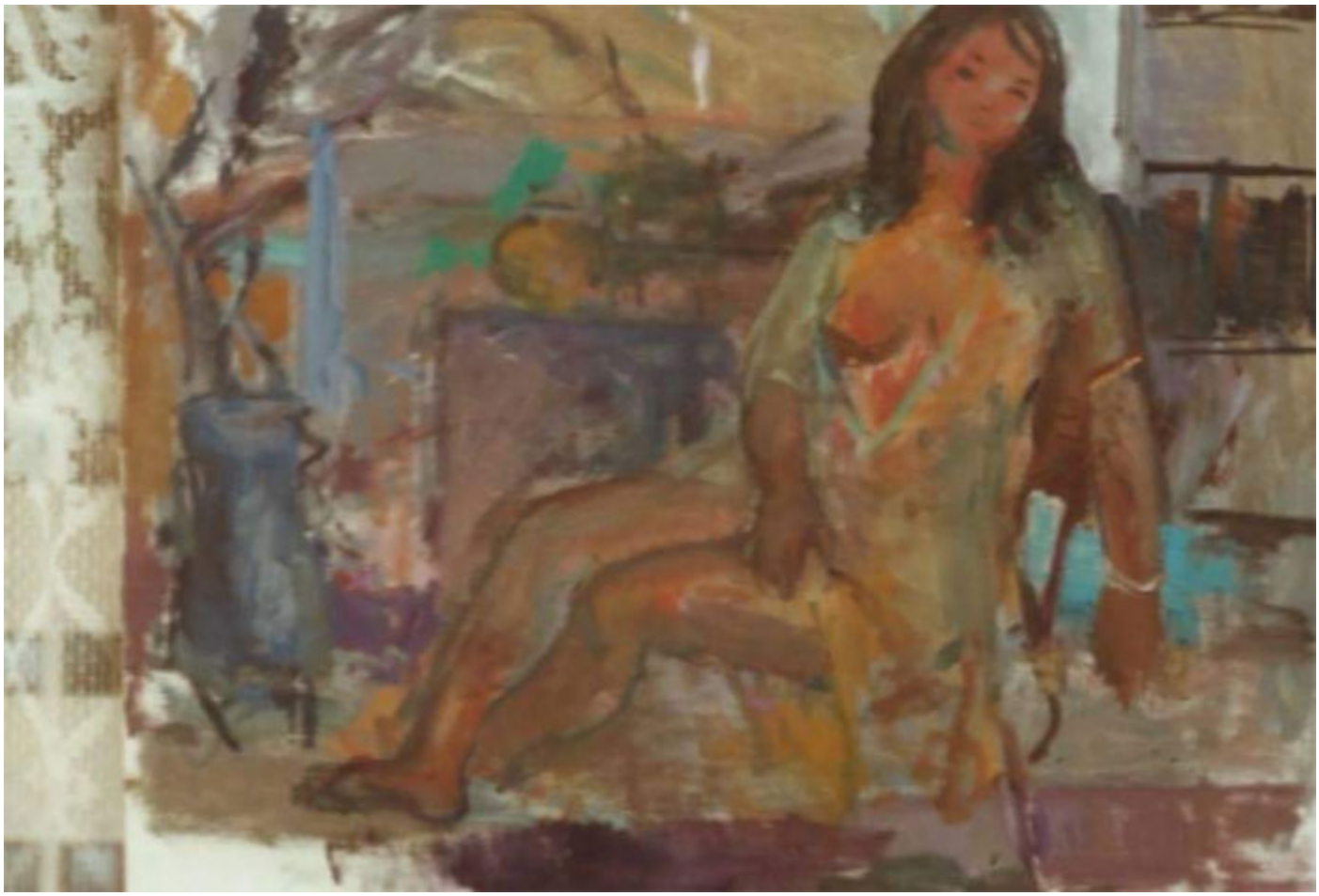

تلك الجهود المثمرة من مبدعين لديهم صفة التميز تضاف إلى البلدان ألتي إستقروا فيها بعد الهجرة.
وحسب مصادر التوثيق تشير بأنه قد رسم ما يقارب خمسمائة لوحة أثناء أقامته في المغرب خلال سنوات ثلاث، أما عن معرضه في الرباط قد أستقطب جمهورا غفيرا يثير الإنتباه. عندما حط الرحال في هذا البلد كان ملفت للنظر وأصبح محط أنظار مثقفي المغرب وفنانيها، لقد رسم أعمال تتضمن سخصيات متنوعة بأوضاعهم وأشكالهم وأسواق مليئة بمضامينها التراثية والبنايات ألتي تحكي عن فن الريازة العربية والإسلامية، حيث كانت رسوماته تشمل كل تفاصيل الحياة ألتي تعايش معها في المغرب وكان حصيلة ذلك معرضه الكبير في الرباط الذي تم الإشارة والإشادة به من قبل الكتاب والفئة المثقفة في البلاد المغربية،

كانت نتاجاته التشكيلية التشخيصية تعبير بألوان زاهية ومتناسقة وبدقة الفنان الماهر عن مظاهر المجتمع المغربي في حياته اليومية، لقد كرس حياته للإبداع في فنه وللثقافة عامة، ونجده في سفر ألوانه متناغمة ومنسجمة ولا يترك رمزه اللوني أن يرتبك أو يتعثر كونه مستمد من تاريخه الإبداعي والتراثي، ويبقى سفره اللوني ضمن هذا الخزين الموروث الخالد الذي لا ينضب. ففي كل معارضه وخاصة معرضه في الرباط كان التخطيط السمة الواضحة التي جمعت خيوط التراث في المغرب لديه ليكون على وعي ودراية في كل مشروع فني يقدم عليه فهو مشخص ومدون لحركة الحياة عن طريق ألفن وبالذات تخطيطاته السريعة والمتأنية لتراث المغرب.

لقد كرس حياته كلها للفن وهذه هي سمعة الرواد التي تشعره بأنه صاحب قضية وقيادة وريادة فنية ومسؤولية أمام الأجيال اللاحقة لذا أصبح من أكثر المؤسسين للرؤيا والإبداع في عالم الجمال وفي خصوصياته التي ترك بصماتها هنا, وهناك في وطنه العراق الذي أحبه, وفي السعودية والمغرب والجزائر وفي باريس ولبنان وألمانيا وكل البلدان التي حط الرجال بها سواء كان في معارضه الفنية أو محاضراته عن الفن. لأول وهلة ترى التبسيط في لوحات الفنان – خالد الجادر- ولكن عندما تطيل التأمل فيها نجد توافر القيم اللونية ضمن مساحة ضربات الفرشاة المطروحة على القماش والإستخدام الأفضل والمدروس للألوان، توحي تلك النتاجات الدلالة والكشف عن مساراته الروحية والنفسية والفكرية، فالتبسيط هنا طرح كل الأشياء الطفيلية التي تعيق الأختيار للطبيعة التي يرسمها بحيث يجعلها قريبة من صفاتها الجمالية المثلى التي تقترب من حس المشاهد وتجعله منحازا لها أنحيازا يقترب من الأنبهار، وهذه صفة من صفات الإبداع والمبدع كذلك يبتعد بأعماله عن كل شيء مجتر أو معاد أو سلفي. أن خطوط الجادر المتراقصة على نغم وعذوبة اللون في اللوحة

تستوقف المشاهد وتطرح الخطاب الجمالي ليكون على بينة ودراية من هدف الفنان وأسلوبه، ولن يأتي هذا الأسلوب أعتباطا وأنما جاء من تأملاته النظرية ودراسة للتاريخ والذي وظف ذلك في أعماله الفنية، لذلك ترى النتائج مكتملة وواضحة. لقد منحته الطبيعة مديات واسعة للسروح الذهني لإنتقاء مصادرها اللونية، وجعلها مسألة تعويضية عن كل شيء, عن الأنسان وعن الكائنات الحية في الطبيعة.

وبشكل عام فإن ألوانه تسودها الألوان المحايدة والباردة، سوى تداخل ألوان الإثارة الحارة. ويذكر ذلك ألفنان خالد الجادر عن أعماله : (يجب أن لا نكرر بأننا ننقل الموضوع ، بل يجب أن نكرر بأننا نخلق الشكل، يجب دائما ملاحظة المجموع داخل الصورة وليس أجزاء الموضوع متفرقة ولا التفاصيل) ولد الفنان الجادر في عام 1924 ورغم دخوله كلية الحقوق وتخرجه منها ، وتأسيسه رابطة الحقوق للرسم عام 1946 كان الفن هاجسه حيث درس وتخرج من معهد الفنون الجميلة ببغداد ليوفد الى باريس فينال المدالية الذهبية مرتين في الرسم ولينتخب عضوا في صالون باريس ثم يحصل على الدكتوراه في الآداب (تاريخ الفن الأسلامي) بدرجة شرف بعد عودة الى بغداد قام بتدريس الرسم وتاريخ الفن في جامعة بغداد ثم عين عميداً لمعهد الفنون الجميلة بعدها عميداً لأكاديمية الفنون الجميلة عند تأسيسها وشغل رئاسة اللجنة الوطنية للفنون التشكيلية التابعة لليونسكو وعضو اللجنة الثقافية العليا ورئاسة جمعية الفنانين العراقيين ومن ثم أميناً لسراللأتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب.

أول معارضه الشخصية بغداد 1955 برلين عام 1955 / 1957 براغ عام 1960 / 1968 بوخاريست – الدنمارك – السعودية عام 1973 برلين عام 1977 وله معارض في المغرب. وهناك مزية تجلت في أعماله منذ السبعينات وهي الغاء التسطيح ، جمع المستويين العمودي والأفقي في منظور جديد، البعيد لا يختفي بل يتجلى، وكأنه في مقدمة اللوحة الغاء حجاب القريب للبعيد.

د.ماضي حسـن نعمـة

ماضي حسـن نعمـة فنان عراقي وكاتب وناقد في الفن التشكيلي..حاصل على بكلوريوس فنون تشكيلية ..ماجستير طرائق تدريس الفنون التشكيلية .. دكتوراه طرائق تدريس الفنون التشكيلية . اقام العديد من المعارض الشخصية والمشتركة اخرها معرض شخصي في قاعة ادمينتن الكندية. لديه العديد من المؤلفات منها كتاب (تنمية....

المزيد عن الكاتب